

الأزهر والحياة العامة

مالك والجاحظ

في العصر الحديث
للأستاذ محمود الشرقاوى

يقول الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى في حديثه مع الرسالة :
« بين أيدينا كل ما ورد عن الرسول من الأحاديث ، وما روى
عن الأئمة من الأحكام ، وما أثر عن الفقهاء من الكتب ؛ وفي
خزائنها كل ما خلف للعرب وغير العرب من لباب الأدب
وعصارة الفكر . ومع هذا ليس في الوسائل وهذه القوة في
الاستعداد لا نرى إلا فراغاً يثير الظنون ويفرى بالأزهر التهم »
ثم يتعجب للشيخ الأكبر كما يتعجب بعده الدكتور زكي
مبارك متسائلاً : لماذا لا يظهر في العصر الحديث مشروع مثل
الإمام مالك أو أديب مثل الجاحظ ... ؟
وهذه هي المسألة التي وعدنا قراء « الرسالة » أن نبينها
في ختام مقالنا الأول^(١)

صحيح ما يقوله الشيخ الأكبر من توفر ما روى عن الرسول
من الأحاديث وما روى عن الأئمة وعن الفقهاء ، وتوفر ما في
خزائنها مما خلف للعرب وغير العرب من لباب الأدب وعصارة
الفكر . صحيح كل هذا ونحن أميز عن جميع المعصور حتى عن
عصر مالك وعصر الجاحظ في توفر هذه المصادر كلها والمراجع
كلها والكتب كلها وفي سهولة الوصول إليها والبحث فيها

ولكن توفر هذه المراجع والمصادر والكتب لا يبرز من
بيننا إماماً كمالك ولا أديباً كالجاحظ . وليس من المعجب ألا يبرز
ليست الكتب وحدها ولا المراجع ولا الأصول هي التي
تنشئ الأديب ولا هي التي تبرز للمبقرى ، بل هناك أسباب أخرى
يمكن أن تذكر منها البيئة العلمية والوسط الاجتماعي ، ومستوى

(١) عدد ٣٠٨ من الرسالة

الحياة الذهنية في العصر الذي ينشأ فيه العالم أو ينشأ فيه الأديب
فهل نستطيع أن نزع أن البيئة العلمية التي نشأ فيها مالك
والتي تكون فيها تفكيره وتم نضوجه العقلي ، أو تلك للبيئة
التي نشأ فيها الجاحظ ، وتكون فيها تفكيره ، وتم نضوجه
الأدبي . هل نستطيع أن نزع أن هذه البيئة أو تلك شبيهة
بما نحن فيه الآن أو قريبة منها ؟

كانت الحياة الاجتماعية والحياة السياسية في عصر مالك
والجاحظ تغور بالنشاط بل بالعنف ، وتضطرب بالحياة للقوة
التجدة . وكانت الأحداث السياسية والحربية والاجتماعية
تجىء في كل يوم بجديد . وكانت الأمة الإسلامية أو الأمة العربية
في عصر مالك والجاحظ هي صاحبة السيادة والسلطان المطلق في
العالم كله « عالم ذلك العصر » ، وكانت حضارات الأمم القديمة
المرققة وأموالها وآثارها للعقيلة والأديبة تنحدر كالسيل في نهر
الحياة الإسلامية أو العربية ويملأها بالنشاط والحركة والحياة .
وكان المجتمع الإسلامي أو العربي في عصر مالك والجاحظ يشعر
بأنه صاحب السيادة على ما سواه من المجتمعات ، صاحب السيادة
الذهنية والعقلية والأدبية . بل لم يكن يجد أمامه ندأ من
المجتمعات يمكن أن يقارن به أو يوزن إلى جانبه أو تقام بينه وبينه
المفاضلة والترجيح ، لأن الأمة الإسلامية أو العربية كانت لذلك
المهد صاحبة السيادة السياسية والحربية وما سواها من السيادة
ولم تكن تجد أمامها من توزن سيادته بسيادتها أو تقام بينها وبينه
المفاضلة والترجيح

وفي هذه البيئة وفي ظل هذه السيادة التي يشعر بها المجتمع
وتشعر بها الدولة لأنها حقيقة واقعة . نشأ مالك والجاحظ فكانت
لها سيادة الذهن وسيادة الفكر والأدب والفن

وهذه الأشياء كلها : البيئة العلمية ، والوسط الاجتماعي ،
ومستوى الحياة الذهنية ، وشعور المجتمع بالسيادة أو بالهوان ، ومكان
الدولة من القوة والضعف ؛ كل أولئك أشياء ليست هينة للشأن
في تكوين الأديب والعالم وفي تميزه وحدة ذهنه وقيمة إنتاجه .
وبالمقارنة بين هذه الأشياء على عصر مالك والجاحظ وبينها
في مصر والشرق على عصرنا هذا نستطيع أن نضع علماءنا وأدباءنا
حيث يكون موضعهم الطبيعي

ولعل من المفيد أن نذكر هنا قول ابن دريد في مقصورته :
وكل قرن نجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا
وقد نجم مالك ونجم الجاحظ في زمن كانت السيادة فيه
لدولتهم ودينهم ومجتمعهم فكانوا شبيهين بزمنهم ، ونجم علماؤنا
وأدباؤنا في زمن فهم شبيهون به
ولا عجب في ذلك ولا غرابة

ولكننا ننقل من ذلك إلى مسألة أخرى نلخصها في هذه
الأسئلة وفي الإجابات عليها :

ما هي القيمة الحقيقية لمالك والجاحظ؟ وهل لا نجد في عصر
غير عصرهما من تكون قيمته مثل قيمتهم ؟ وهل لا نجد
في عصرنا هذا من يقرون إليهما ويوزن بميزانهما ؟

أما مالك فهو إمام مشرع نافذ البصيرة والذكاء في فهم
المسائل وفي التشريع ، ولكننا نستطيع أن نجد له ندأ بل أندادا
كثيرين في هذه الصفات كلها . وفي مسائل كثيرة نجد علماء
متأخرين يناقشون مذهب مالك أو غيره من المذاهب ويفتقدون
رأيه في مسألة أو في مسائل . ثم يقتنع للباحث النصف بأن رأيهم
أرجح من رأي مالك وأن فهمهم لهذه المسألة أو المسائل أدق
من فهمه

ونستطيع أن نجد كثيراً من هذا في مطالعنا لعلم الأصول
وأن يجده غيرنا كذلك

ونجد في عصرنا هذا علماء يناقشون في مذهب مالك وفي
غيره من مذاهب الأئمة ويفتقدون رأيه في مسألة أو في مسائل ،
ويكون رأيهم فيها أرجح من رأي مالك ، وفهمهم لها أدق
وأصدق من فهمه

في الأحاديث الدينية التي أذاعها الأستاذ الأكبر ، وفي
دروسه التي ألقاها منذ سنين ، وفي أحكامه قبل ذلك في القضاء
آراء ومسائل خرج فيها عن رأي مالك وأبي حنيفة وناقشها وأنتع
سامية وقارنيه به أب رأيه على رأيهم . وكان فهمه لهذه المسائل
أدق وأصدق من فهم مالك وأبي حنيفة

ونقرأ ونسمع للماء معاصرين آراء يخالفون بها هذا وذاك
من الأئمة ومن الفحول ، ثم نجد من الإنصاف أن نقرهم وأن

نشهد بأنهم أدق فهماً وأصدق رأياً من هذا وذاك من الأئمة
والفحول ولو خالفوا مالكا

ثم نقول بعد ذلك في الجاحظ مثل قولنا في مالك بفارق
بسيط ولكنه ضروري . فإذا أردنا أن نضع الجاحظ وغيره من
خول الأدب القديم حيث يستحقون من تاريخنا الأدبي والثقافي ،
يجب أن نلاحظ الفرق بين « الأدب » في المصور القديمة وبين
« الأدب » في عصرنا هذا ، وأن نلاحظ الفرق بين « الأدب »
في تلك المصور وبين الأدب في عصرنا هذا

فالأدب عند العرب في عصر الجاحظ وفي غيره من المصور
(وإلى عهد قريب) كان أدب حفظ وجمع ورواية . وكان
الأدب يوزن قدره ويلحظ مكانه . تقدر ما يحفظ من الشعر ،
ومن غريب الرواية ، ومن كلام السلف والأعراب ، ومن شعر
الشعراء . وكان أكبر ما يمدح به الأدب أن يقال فيه إنه
« بحر علم » و « خزانة أدب » وإن صدره « وعي علوم الأوائل
والأواخر » إلى غير هذه التمثيلات التي تدور كلها حول محور
الرواية والحفظ والجمع والاستيعاب

فإذا نظرنا إلى الجاحظ وإلى من هو أقل من الجاحظ مكاناً
فإننا لا نجد في عصرنا من يشابهه أو يقاربه ، ولا نريد أن نجده .
والأدب والشعر ورواية الغريب التي هي بضاعة الجاحظ وغيره
من خول الأدب السوالت (إذا نظرنا للأدب هذه النظرة) هذه
البضاعة لا تساوي شيئاً ، ولا نأسف لأننا لا نجد في عصرنا
من يوزن بالجاحظ فيها . ففندنا خزائن الكتب أرحب وأوسع
وأصدق وأيسر من صدر الجاحظ ومن روايته

أما الآن ، فنحن ننظر إلى الأدب على أنه فن قائم على قواعد
وأصول ، وعلى أنه أسلوب وفكرة ، أو على أنه أسلوب فقط .
نحن ننظر إلى الأدب على أنه شيء من هذا أو هذا كله ، أو على أنه
شيء غير هذا وذاك . ولكنه مهما يكن ، فليس هو الجمع والحفظ
والاستيعاب والرواية للغريب والشعر . فإذا وزنا أدب الجاحظ
بـ « الميزان الجديد للأدب » ، فقد خف وزنه ولم يبق منفرداً ولا فذاً
منقذاً للنظير والأقران في عصرنا

فقدار الثقافة التي كان يتميز بها الجاحظ ونوع هذه الثقافة
لا وزن له ولا قيمة في عصرنا . وتلميذ في الأزهر أو في مدرسة